ياستفزازات بالجملة

بسمة النسور

أقردني الله (هكذا نقولها بالدارجة الأردنية للتعبير عن إقدامنا على فعل متهوّر)، وللقرد مكان غامض وغريب في ثقافتنا الأردنية الشعبية، نستخدمه أحياناً وحدة قياس، فنقول: «كلهم قردين وحارس» للتدليل على قلّة العدد، وفي معاملاتنا المالية نقول: «إذا ضربها القرد فهي تساوي كذا»... ما علينا، المهم أن الله «أقردني» حين سوّلت لي نفسي الأمّارة بالنكد أن أنشر «بوستاً» على «فيسبوك» أنتقد فيه مظاهر الفرح العارمة والمبالَغ بها (برأيي) على إثر فوز الأردن على العراق في دوري آسيا في الظروف المأساوية التي يمرُّ بها أهلنا في غزّة من قتل وإبادة وتهجير وتجويع وتشريد. كتبتُ جملة بريئة على صفحتي أقول فيها: «طلع آخر همْنا طابة!»... وعينكم ما «تشوف» إلا النور، انهالت عليّ الرسائل على الخاص والتعليقات على الصفحة، مندّدة بطرحي غير الوطني المستكثر على أبناء الشعب المبتهج فرحتهم بالفوز العظيم. وهكذا بكل شجاعة! ومن باب «إذا انجن ربعك عقلك ما بينفعك»، شطبت البوست، خشيةً من تعكير صفو أفراح الوطن، علماً أنني من محبّي كرة القدم في العادة، غير أن الفرح تحت أي عنوان بات ضرباً من الإثم، فيما المقتلة ما زالت دائرة في غزّة تحت سمع العالم وبصره بأسره.

على صعيد آخر لا يقلّ استفزازاً، أقامت إعلامية مصرية شهيرة لطمية مدوية ما زالت مستمرّة أثارت جدلاً كبيراً بين مؤيد ومعارض، بسبب فشل عملية تجميل أجراها طبيب تجميل لبناني لا يقلّ شهرة، وأدت إلى تشويه ملامح وجهها بالكامل، وما زال الطرفان يتبادلان البثوث، كلٌّ يشهّر بالآخر، ويهدّد باللجوء إلى القضاء، وأصبحت الحادثة المؤسفة مدار الحديث والتحليل على «السوشال ميديا»، باعتبارها أكبر همومنا، فانبرى أنصار الإعلامية عاشقة الفضائح المثيرة للجدل في الدفاع عن نجمتهم المحبوبة ضحية الطبيب الذي تصدّى الإعلام اللبناني للدفاع عنه والإشادة بمهارته وخبرته العالية وكَيْل الاتهامات لها وتحميلها ذنب الهوس بالتجميل.

وبلغت ذروة الاستفزاز أنّ كاتباً ثمانينياً، يبدو أنه يعيش مراهقة متأخّرة يفتقر إلى الحد الأدنى من الوسامة، انهمك منذ بداية المجزرة بنشر صور شخصية له مبتسماً سعيداً بالحياة بواقع يومي، إضافة إلى صور العصافير وهي تزقزق والقلوب الحمراء والشمس الساطعة في تجاهل مثير للعجب لأحداث دامية على مقربة منه، والمفترض أنها تعنيه على مستوى شخصي، لكنْ «أخونا ولا على باله»، ما زال ماضياً في التعبير عن لا اكتراثه بما يجري لأبناء جلدته. وكاتب آخر لا يقلّ صفاقة (هجين سفر) حريص بشكل غير مفهوم على تزويدنا بالوثائق والصور والبث المباشر عن تفاصيل سفرياته المتتالية.

قد يقول قائل: «وأنت مالك دعي الخلق للخالق، وبلاش مزاودة». وتحرّياً للدقة، عليّ أن أشطب «قد»، فقد قالها قائل في وجهي، بلا خجل، وقد أصبح التضامن مع جراح غزّة عند بعضهم في زمننا الأغبر تهمة تستدعي الدفاع والتبرير.

أيّ دركٍ منحطٍّ وصلنا إليه؟ أيّ عار يلطخ جباهنا ونحن نغسل أيدينا من دم إخوتنا، ونواصل تفاهاتنا غير عابئين بالدم المسفوح غيلة وغدراً وتواطؤاً وصمتاً مخزياً مخجلاً؟ وتظلّ الأسئلة الصعبة مطروحة بلا إجابات شافية. كيف سنواجه كل هذا العبث؟ وماذا سيسجل التاريخ عن مواقفنا المتخاذلة؟ بالأحرى كيف سنواجه انفسنا ونحن الشهود الذين يعيشون المرحلة الأكثر قتامة في تاريخ الأمة المشرذمة الماضية في غيّها، العاجزة عن التأثير لفرط انهماكها في الثانوي والسطحي، وقد نالت ما نالته من حقن التخدير واللامبالاة؟ وفي زمن التخلي والنكران والتجاهل لا نملك أمام دموع طفل غزّي رحلت عائلته كلها وخلفته مرتعداً في خيمة تخفق فيها الرياح مع شقيقته الرضيعة يعتني بها ويحاول حمايتها من بطش عدو مجرم بلغ منتهى السفالة يقتحم المستشفيات متنكّراً بكل خسة وغدر ليغتال الجرحى من على أسرّتهم التي تلطخ بياضها بالدماء المسفوكة غيلة سوى أن نطأطئ رؤوسنا خجلاً وعجزاً وقهراً.

مصر والعراق خطّان أحمران

سامر خير أحمد

عقب مباراة كرة القدم بين منتخبي الأردن والعراق، في خضم بطولة كأس آسيا المقامة في قطر، أدركتُ لماذا يحمل جيل الآباء حبّاً خاصاً لمصر، يختلف عن حبّهم أي بلد عربي آخر... شهدت المباراة التي فاز فيها الفريق الأردني تنافساً غير مسبوق على التشجيع بين جمهوري الفريقين، قبل المباراة وفي أثنائها، على مدرّجات الملعب كما في خارجه، خصوصاً عبر وسائل التواصل الاجتماعي. ثم شهدت أجواء ما بعد المباراة تلاسناً «غير أخوي»، خصوصاً بسبب افتراض الجمهور العراقي أن الحكم (الأسترالي من أصول إيرانية) ظلمهم وانحاز ضد فريقهم بطرده نجم هجوم الفريق أيمن حسين، لاحتفاله بطريقة اعتبرها الحكم مستفزة حين أعاد تمثيل مشهد أكل المنسف الأردني عقب تسجيله هدفاً ثانياً، وهو المشهد الذي كان أدّاه لاعبو الفريق الأردني عند تسجيل هدفهم الأول.

شدّ ذلك التلاسن «غير الأخلاقي» شباباً صغاراً وأشخاصاً طائشين من الجمهورين، لتبادل شتائم غير مهذّبة، منها ما يرتكز على بعد طائفي (سنّي شيعي). وقد وجدتُ نفسي، أنا الأردني الذي لم يزر بغداد يوماً، ولم يُعجب برئيسه السابق صدّام حسين على غير حال معظم الأردنيين، أتألم لأي إساءة تطاول العراق أو العراقيين كما لو أنها موجّهة لي شخصياً أو لأمي وأبي وأولادي، حتى لو صدرت من أولئك الطائشين الذين يظنون أنهم يدفعون الأذى عن بلدهم، إذ يظلّ العراق عندي رمزاً لكل الأمل والألم الذي عاشه جيلي منذ كانت بلاد الرافدين تسمّى «البوابة الشرقية» للدفاع عن الأمة العربية قبل نيّفٍ وأربعين سنة، وصولاً إلى يومنا هذا. ورغم أني أحب مصر وزرتها مراراً، فإني أحبها كحبّي أي بلد عربي آخر، يضاف إليه الإعجاب بنهضتها المبكّرة في العصر الحديث، وإبداع أبنائها في الفكر والفن والعلوم والرياضة. غير أنني، للأسف، لا أتوفر على حنين خاص لها يرتبط بذكريات الطفولة والشباب المبكّر، كحال حنين آباء جيلي وأجداده؛ أي ذاك النوع من الحنين المرتبط بالأمل، الذي عاشه الآباء في خمسينيات القرن العشرين وستينياته. لكني وجيلي، نحن الذين ننتمي إلى عقد السبعينيات وما بعده، نتوفّر على ذلك النوع الخاص من الحنين تجاه العراق.

مهلاً. هذا لا يعني أنني أبارك ذاك التاريخ السياسي المصري في الخمسينيات والستينيات الذي أهدر موارد البلد بسبب سوء التخطيط، ولا التاريخ السياسي العراقي في الثمانينيات والتسعينيات الذي فعل الشيء نفسه بالتنمية ومواردها، فلولا ذاك التهوّر السياسي والعسكري، وسوء التخطيط الاقتصادي والتنموي، لكانت مصر والعراق اليوم في مصافّ الدول الصناعية المتقدّمة.

لكنني إنما أتحدث عن الحنين إلى الأمل. ذاك الأمل الذي بتنا، نحن العرب، نفتقده اليوم: الأمل بالنهضة والتقدم والإنجاز والعودة إلى التاريخ... لذا، لم أحب أبداً أن يرد الجمهور الأردني على الجمهور العراقي بعد مباراة كرة القدم تلك، حتى لو قال بعض أفراده كلاماً غير مسؤول، لأنه بالضرورة لا يمثل شعب العراق الكريم العظيم، الذي نعرف، نحن الأردنيين، خصاله الطيبة أكثر من غيرنا، نظراً إلى طول العشرة بيننا في العقود الأخيرة، لأسباب سياسية واقتصادية قاسية نعرفها، ولا أود استذكارها. ثم لأننا نحمل ذكرياتٍ خاصة عن منافسات كرة القدم مع منتخب العراق خلال الثمانينيات والتسعينيات.

لقد وجدْتني أنتفض غضباً من أجل العراق، الذي لم أختبر زيارته أو العيش فيه، تماماً كما كنتُ أرى من هم أكبر منّي سناً، من الآباء والأجداد، ينتفضون بطريقةٍ مدهشةٍ غير مفهومة عند ذكر غير إيجابي لمصر. كنت أظنُّ أن الأمرَ يرتبط بأنها كبرى البلاد العربية من حيث السكان، ورائدتها من حيث التاريخ، لكني اليوم أحسب أنني أدركتُ جوهر السبب: إنه ذاك النوع الغامض من الحنين إلى الأمل، الذي ينبُت في وجدان المرء خلال طفولته وشبابه المبكّر، ثم يحتفظ به طوال العمر حتى لو تغيرت أفكاره وأهواؤه وقناعاته.

مصر والعراق خطّان أحمران في ذاكرة الأجيال العربية لا يجوز تجاوزهما بالإساءة أو الكلام غير المسؤول، ولا قيمة ولا بقاء لما يفعله الطائشون.

(كاتب من الأردن)

عمر المختار وغزّة واليسار العربي

المهدي مبروك

ماذا لو كان عمر المختار حيّاً يقود جهاده ضد الطليان؟ أو لاعتبارات عديدة يختار جبهات أخرى؟ ندرك تماماً أنه سؤال عبثي لا معنى له إذا ما شددناه إلى منطق التاريخ وفلسفته «الحتمية» التي تجعله خطّاً يتقدّم في اندثار آني لجوهره، فمادته آيلةٌ لا محالة إلى التبخّر. ذلك جوهر فرادة التاريخ، وقد قال ماركس إن التاريخ لا يعيد نفسه وإن فعل ففي شكل مهزلة، متندّراً بما يفيد الاستحالة أو توقعاً منه للمهازل التاريخية المتكرّرة وما أكثرها، فلا شيء تاريخياً إلا بما ثبّتناه نحن في جوفه، ومنحناه من المعاني (وقائع، أحداث...) ما به نخلّد قراءتنا له وتأثيثاً لذاكرتنا أكثر من تخليد التاريخ ذاته. أما العبث في ذلك كله فهو أن التاريخ يمضي ويضني بعضهم، ويفتك بآخرين، وهو غير عابئ بما نقرأه في «صفحاته»، وما نطلق عليه من أحكامٍ لا يدرك معناها لأننا نحن فقط نصنعُ معنى للتاريخ هذا. لا يوجد تاريخٌ أصلاً، إنما هي سردياتُنا تحشو ذاكرتنا بما ننتقي من أحداث نتوهّم أن لها معنى، والحال أننا نحن جمعناها ونظّمناها، حتى تستقرّ أقدامنا على وجودٍ يجنّبنا دوار الحركة الساقطة، ولولا التاريخ هذا لوقعنا في الثقب الأسود لزمنٍ سديميٍّ سحيق. ما الذي دعاني إلى استحضار الشيخ عمر المختار في مثل هذه السياقات التي تنزف فيها ليبيا ممزقة؟ لن تكون لليبيا علاقة بهذه الدعوة المستحيلة، لكن «لو استجاب» لنا التاريخ، وقبل الشيخ عمر المختار هذه الدعوة، وعاد إلينا بكل تلك الهيبة الجليلة وعباءته «الجرد الليبي» وصمته المهيب، وقاد جهاده زاهداً في صخبنا ومعاركنا الصغيرة، وحتى الكبيرة التي نخوضها تحت رايات صغيرة، لحاربه قومه قبل أن يحاربه عدوّه.

يؤكد كل الذين تناولوا تاريخ المقاومة الباسلة التي خاضها الشيخ الجليل أن هناك زوايا عتمة في كل تلك المعارك، مثل خيانات أبناء الدم، وعدة أحداث نحيلها إلى الهامش، حيث تغدو تفاصيل صغيرة «بلا معنى» ويعيد تصغيرها من هم خارجها. ولا شك أن تلك أوالية تهوين نفسي حين نسقط المعنى... لا ندري لو سألنا الشيخ ذاته، أو سألنا معه أيضاً باتريس لومومبا أو صدّام حسين أو تشي غيفارا عن «تلك التفاصيل الصغيرة» التي قادتهم إلى ذلك القدر المحتوم لكان لهم رأي آخر. ما يشفع لنا التقول على التاريخ إنّ عديدين من أبطاله ماتوا قبل أن يرووا تاريخهم. صمتوا تاركين لنا المجال حرّاً حتى ينطق التاريخ بما نشاء. سيخوض الشيخ عمر المختار جهاده، وسيختار الانضمام إلى جبهة غزّة، وقد تركها عند وفاته حرّة، لم تطاولها بعد يد الصهاينة... سيستوعب الشيخ كل التطورات المذهلة التي جرت بعد غيبته الصغرى، وسيؤجل معركته مع جبهاتٍ أخرى، وهي كثيرة، خصوصاً أن ليبيا التي جاهد من أجل تحريرها قد استقلت، وقد انقسمت، ويا للصدمة، في السنوات الأخيرة، إلى ليبيتين. يتجنب الشيخ الخوض في التفاصيل الدقيقة، فالمعركة البارزة التي لا مخيّمات اصطفاف داخلي فيها، أو كهذا يدرك حدسا، وللوهلة الأولى، هي معركة غزّة التي ستضعه في مواجهة مباشرة مع الكيان الصهيوني الغاصب.

لا يأبه الشيخ عمر المختار بكل الصور النمطية التي أطلقها عليه خصومه، ولكنه سيُدرك تماماً أن مخيّم أنصاره من اليسار العربي سيرميه أضعاف ما رماه عليه خصومه، فثمّة جدل يجري داخل طيف كبير من هذا اليسار الذي يعتبر أن حركات التحرّر الوطني يسارية بالضرورة. ولذا يتخذون حاليا موقفا سلبيا من حركة حماس، لا يجرؤون على قوله، ويعمدون إلى تلبيس الكلام حين يحيّون المقاومة، ويجري تعويم المعركة الحالية بين محتلٍّ ومقاومة، ولا يجرُؤ هؤلاء على مجرّد تسمية «حماس»، حتى ولو اعتبرناها فصيلاً صغيراً من فصائل المقاومة.

يعتمد اليسار العربي، في مجمله، على سرديةٍ ترى أن خفوت اليسار العربي، واليسار الفلسطيني تحديداً، ناجم عن غطرسة ثالوث الرجعية العربية والإمبريالية والاحتلال. ويؤدّي هذا العمى الأيديولوجي إلى قراءة تجعل من «حماس» إحدى نتائج ماكينة الشر ثلاثية الرؤوس، وكل هذا النضال هو تمويه وجرٌّ إلى معركة أخرى على اليسار أن يقودها. تستدرجنا هذه القراءة المخاتلة إلى اعتبار الاحتلال والرجعية والإمبريالية أفضل من «حماس». وأقصى ما يتنازل عنه اليسار اعتبار هذه المعركة تجري بين رجعيات. والأفضل أن ننتظر نهايتها التي ستكون حتماً هزيمة «حماس» باعتبارها ممثلة الرجعية الدينية. وهنا لسنا بعيدين عن «الجد» ماركس، حين زار الجزائر سنة 1882 طلبا للاستشفاء، وكانت فرنسا تدكّها، وتسحقها، فلم يرَ من الجزائر سوى شعب من اللصوص الأفظاظ وقطّاع طرق، يحق لفرنسا أن تجلب له الحضارة، فهي بلد يتم تعميره وإدراجه في ركب الحداثة. ولا شك أن أحفاده من اليسار العربي، إلا من رحم ربّك، ما زال يعتقد أن ما يُفسد معركة غزّة هذه، ويمنع الاصطفاف، أن «حماس» تقودها، وهي جماعة لا تختلف عن تلك الصورة التي رسمها ماركس لثوار الجزائر. لقد عبر أنجلز أيضا عن ابتهاجه العميق حين أسر الأمير عبد القادر الجزائري. ولن ننسى ذلك التمجيد والغزل الذي كتبه ماركس عن الجنرال الفرنسي السفاح بيغو. يخفي اليسار العربي ما يشتهي ولا يقوله علناً إلا في أوساط ضيّقة: لو اختفت «حماس» لغدت المعركة أكثر صفاء. لا يمكن أخلاقياً أن نزيل نحن «حماس» ولا يستطيع اليسار الهزيل حالياً أن يزيلها، وهو يرى اختفاء اليسار الفلسطيني الذي قاد هذه المعركة في السبعينيات، باستثناء أشباحٍ من كل الفصائل اليسارية.

> **في انتظار اليسار العقلاني، المتنوّر، فليذهب الجميع إلى الجحيم، لأنها ليست المعركة التي ينتظر**

ثمّة يسار عربي في أكثر من دولة ليس له القدرة الفكرية على الذكاء، ولا القدرة هيكلياً على المواجهة، ولا يريد لغيره أن يواجه، أن يقاوم، وثمّة يسار عربي آخر يرتّب المعارك ضمن سلم أولويات معينة يجعل من مقاومته الرجعية أم المعارك، وثمّة يسارٌ فكريٌّ متكلسٌ ينام في كهف الوضعية والحداثة من دون أن يجتهد في قراءة العالم من خارج هذه المنافذ الخانقة. يسار لاهوت التحرّر في أميركا اللاتينية لا نظير له في تربتنا الفكرية العربية.

في انتظار هذا اليسار العقلاني، المتنوّر الوطني، الحداثي، الإنساني، فليذهب الجميع إلى الجحيم، لأنّها ليست المعركة التي ينتظر، ولتذهب «حماس» وربّها ليقاتلا... هكذا يفكر طيف واسع من اليسار. لكن، ثمة خشخشة في أوراق التاريخ المتطايرة في صحرائنا القاحلة تُنبئنا أنّ التاريخ لن يعود... تجنباً للمهزلة.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

كاريكاتير

عماد حجاج

هؤلاء المراسلون في غزّة

فاطمة العيساوي

لا تشبه وحدة المراسل في الميدان أي شيء آخر. إنه وحيد في وجه المجهول. لا شيء مضمون، بما في ذلك إمكان تنفيذ المهمّة المنوطة به، وسط ظروفٍ خطيرة ومتقلبة. تشمل التدريبات على تغطية أماكن النزاعات وإرشادات حول تخفيف المخاطر للمراسل، بشكل أساسي، عبر قدرته على اتخاذ قرارات في حركته تحدّ من تعرّضه لمجازفات غير مدروسة أو ضرورية، ولو أن هذه القدرة تكتسب بشكل أساسي بالخبرة والمراس والكثير من الحظ. يصعُب تخيّل وحدة المراسلين الإخباريين في غزّة في مواجهة واقع يملكون القليل جداً من أدوات السيطرة عليه، ولو أنهم جزء من المجتمع المحيط بهم يعيشون معه وينقلون معاناته. تحوّل مراسل «الجزيرة» في غزة وائل الدحدوح أخيراً إلى أيقونة تعبر عن صمود مراسلي غزّة في ظروف تفوق قسوتها ما اعتاد عليه مراسلو مناطق النزاعات. تحوّل، وقد فقد أفراد عائلته، بمن فيهم ابنه البكر الصحافي حمزة الدحدوح، إلى مادة لجداريات (غرافيتي) في شوارع في لندن والقاهرة وبيروت وغيرها. حملت في حي بريكستون جنوب لندن جدارية كبيرة صورة مراسلة ترتدي سترة الصحافة وشعار «أبطال فلسطين». تحوّل هؤلاء المراسلون إلى أبطال بالقوة، وتلك ليست من متطلبات العمل الصحافي ولا من مواصفات الصحافي.

يقول وائل الدحدوح في مقابلة مع الإعلامي أيمن محيي الدين رداً على سؤال عن قدرته على العمل بعدما فقد أفراد أسرته إن الألم كبير والثمن عظيم، لكن ما البديل؟ هل ننتظر الصواريخ لتصل إلينا في منازلنا ونتخلّى عن الرسالة الإنسانية التي نقدّمها؟ بالنسبة للصحافي، التغطية من غزّة «عملٌ صعب» فرض على عائلته تضحيات جمّة، بما في ذلك صعوبة أن يمارس دوره أباً لأسرة بسبب ضغوط العمل. يقول المراسل إنه لا يزال وفياً لمهامه، لأنه وفيّ لدماء أفراد عائلته الذين قتلوا، وكان عليه أن يغطي مقتلهم باعتباره خبراً عادياً. ويتابع أنه التزم المهنية، ولم يستخدم المنصّة الإعلامية للانتقام، رغم أن الوجع كان لا يُحتمل، عندما اضطر لمعاودة عمله، وكأن أمراً لم يحصل.

حولّت ظروف التغطية من غزّة ما يفترض أن يكون مهمة عادية إلى ما يشبه المهمّة المستحيلة أخيراً، مهمّة دفعت عائلته ثمنها قبل أن يقتلوا بالقصف الإسرائيلي. بالنسبة للمراسل، العمل الصحافي «مهمّة إنسانية» تبرّر الخسارات المؤلمة، باعتباره صلة الوصل بين فظاعة ما يجري على الأرض والرأي العام العالمي. يقول إن ضآلة التضامن الصحافي العالمي مع القتل المتواتر لصحافيي غزّة يشكل جزءاً من الألم والإحساس بالوحدة والتخلي العالمي عنه وعن زملائه. «نشعر أننا قُتلنا مرّتين، مرّة بالقصف وأخرى بالصمت» على القتل. يقول. حتى كتابة هذه السطور، قتل ما لا يقل عن 85 صحافياً وعاملاً إعلامياً في الحرب على غزّة، بحسب لجنة حماية الصحافيين، ومركزها نيويورك.

تتشكّل هوية صحافي غزّة بين نقيضي الأيقونة والإرهابي. أعلنت إسرائيل مسؤوليتها عن مقتل صحافيين، باعتبارهم متعاونين مع حركة حماس أو «إرهابيين»، بينهم حمزة الدحدوح مراسل «الجزيرة» الذي قتل مع الصحافي مصطفى أبو ثريا في استهداف السيارة التي كانت تقلهما في حين كانا في مهمّة صحافية. في المقابل، تقدّم المؤسّسات الإعلامية مراسليها أيقونات للصمود والتضحية في أداء مهامهم الصحافية، من دون اعتبار للثقل الإنساني، والتبعات المعنوية والسيكولوجية الناجمة عن تعرّضهم لهذا القدر من المخاطر، وتعاملهم اليومي مع ظروف غير إنسانية. قد تكون إحدى الصور الأكثر إيلاماً من بين المآسي اليومية التي تصل إلينا من غزّة صورة وائل الدحدوح يودّع جثمان ابنه وهو ممسك بيده، في حين يتحدّث للإعلاميين المتجمهرين حوله عن حزنه لفقدان ابنه البكر. تساعد سرديات البطولة هؤلاء المراسلين على الاستمرار في ظروفٍ غير إنسانية، إلا أنها أيضاً تنكر عليهم حقهم بالاعتراف بمعاناتهم باعتبارها جزءاً من هويتهم المهنية. يصعب على أي منا تخيّل ما يدور في أذهان وائل الدحدوح والصحافيين داخل غزّة، عندما تتوقف المهمة الصحافية، وترتاح الكاميرا، ولو برهة. لا حماية للصحافيين المحليين داخل غزّة ولا عدالة للذين قضوا منهم والذين يُقتلون كل يوم. أعلنت وكالتا الصحافة الفرنسية و«رويترز»، إلى جانب منظمة العفو الدولية (أمنستي)، و«هيومن رايتس ووتش» أن نتيجة التحقيقات في القصف الذي قضى فيه الصحافي اللبناني عصام عبد الله، وجرح فيه ستة صحافيين آخرون أظهرت أن القصف الإسرائيلي كان متعمّداً، واعتبرته «أمنستي» «اعتداء مباشراً على المدنيين يجب التحقيق فيه، باعتباره جريمة حرب». لن يكون هنالك عدالة على الأرجح لعصام، ولا لغيره من الصحافيين الذين قتلوا أو جرحوا، فيما يبدو استهدافهم نسقاً متواتراً. عدد كبير منهم غادر (إن لم يقتل) غزّة، ما يجعل القصة الصحافية من الداخل أقلّ اكتمالاً وتوافراً للرأي العام. لا يثير قتل الصحافيين المحليين صرخات غضبٍ قوية ما عدا بيان من هنا وبيان من هناك لمنظمّات إنسانية أو المؤسسات الإعلامية المعنية. قال وائل الدحدوح إن الصمت الدولي يقتُل، وهو على حقّ، ولعل من المفيد أن نضيف أن سرديات البطولة الأيقونية تقتل أيضاً حقّ هؤلاء بالاعتراف بمعاناتهم أنها جزء أساسي من هويتهم الصحافية والرواية التي ينقلونها من قلب الخطر. ليس من المفترض أن يكون هؤلاء أبطالاً، يكفي أنهم صحافيون.

> **ليس من المفترض أن يكون المراسلون في غزة أبطالاً يكفي أنهم صحافيون**

(أستاذة جامعية لبنانية في لندن)

العراق... السيادة والوقاحة

عمار السواد

ما إن شرعت القوات الأميركية بضرباتها على أهداف مليشيات داخل العراق، حتى انبرت حكومةُ البلاد مندّدة بانتهاك واشنطن السيادة. الأخيرة تقول إنها أبلغت بغداد بالهجمات. في المحصلة، لم يقرر البيت الأبيض هذه الخطوة إلا بعد تعرّضِ قواتٍ بلاده لهجمات مستمرّة من إيران ومليشياتها داخل البلاد وخارجها. جديدها أخيراً تعرض قاعدة البرج 22 شمال شرقي الأردن، حيث قوات أميركية، لهجمة بطائرة مسيّرة، ما أدى إلى مقتل ثلاثة جنود من تلك القوات. الهجوم غير مسبوق، نفذته جماعاتٌ مسلحةٌ مرتبطة بالحرس الثوري الإيراني وحزب الله اللبناني. ليس متيَقناً بعد أيُّها. المعطيات تؤشر نحو كتائب حزب الله.

مرجّحٌ أن يكون استنكار السلطات العراقية شكلياً، إسقاطاً لواجب التنديد بفعل اعتداء خارجي. لهذا لا يؤخذ كثيراً على محمل الجدّ، بل يُفهم على أساس أن الحكومةَ ممثلةً برئيسها محمّد شياع السوداني محرَجة. لكن، أظن أنّ تنديدَها، شكلياً كان أم حقيقياً، وقاحةٌ. نعم هو كذلك، حتى لو جاء مَن يقول إن الوقاحة هي الغارات، وإن للسلطة العراقية حق الاعتراض. القول الافتراضي هذا مبنيٌّ على مفهوم مجرّد، أن أي بلد عضو في الأمم المتحدة سيدٌ على نفسه وتمثل سيادتَه الدولةُ الحاكمة. الكلام نظري، له شروطه وأسسه المفقودة في الحالة العراقية. مليشيات، سواء أكانت مرتبطة بطهران أم بحزب الله أم لم تكن، ارتبطت بالشياطين أم بالأولياء أم عملت مستقلة، هي التي تنتهك سيادة العراق وبلدان أخرى. وأخيرا قامت بانتهاك صريح في الأردن، بصرف النظر عن أسباب وجود قوات أميركية هناك وشرعيةِ ذلك، وبمعزل عن المزايدات الروتينية مِن دول عربية فيها قوات أميركية، سرّاً أو علناً، على العراق، بأنه محتلٌّ وفيه قوات أميركية والإمعانِ في الترويج لما كان يسمى بمقاومة الاحتلال.

هذا العبث والاستهتار الذي تمارسه المليشيات العراقية داخلَ بلادها وفي بلدان أخرى مجاورة مثال غير ملتبس على انتهاك السيادة. هو اعتداءٌ على سموِّ أي بلد، أن تقوم مليشيا بهجمات على بعثات دبلوماسية أو قواتٍ موجودة بموافقة الحكومة الممثِلة ذلك السموّ، سواء أجاءت بانتخابات حقيقية أم عرجاء أم بسلطة الأمر الواقع. هي الحكومة التي تتعامل معها الأمم المتحدة، وهي المسؤولة عن أي خلل، مِن خلال قنواتها المعنية، أمام الأسرة الدولية. لذا، وقاحةٌ أن تستنكر انتهاكَ واشنطن السيادة دون أن تقوم بما يلزم لوقْف العبث المليشياوي المتباين مع سيادتها. حق الحكومة في الغضب يكون حقاً حين تصون نفسَها وسموّها، أو بتعبير أدق سيادةَ القانون الداخلي والدولي، سواء بناءً على المبدأ الفلسفي القائم على سيادة الأمة أم المبدأ الكامن في سيادة الدولة أم على أي مبدأ فلسفي أو فكري سياسي آخر، حديث أو معاصر. مطلوب منها، قبل أن تتحدّث عن السيادة المنتهكة بفعل غارات خارجية، أن تفرض سيادة الدولة وسيادة الأمة. لا بد مِن سيادةٍ قبل الحديث عن انتهاكها.

بعد معاناة طويلة وبصعوبة بالغة، استعاد العراق سيادتَه وأُخرج من البند السابع الذي دخله بفعل حماقات الرئيس الأسبق صدام حسين واستهتاره. الخروج من هذا البند له استحقاق أساسي، هو أن تفي بغداد بواجباتها في التخلص من تركة الحماقات. نظرياً، فعلتْ ذلك، أما عملياً، فتصنع العكس. إذ، قانونياً، الحشدُ الشعبي (الكيان العسكري المليشياوي المشكَّل بعد احتلال داعش أجزاءً من البلاد) جزءٌ من الدولة وممَوَّلٌ منها. هي مسؤولة عن أفعال فصائله بوصفها أفعالا للدولة. واقعياً، ليست كذلك. تصوْل مليشيات عراقية في الحرب الأهلية السورية وحربها بالوكالة، وتتحدث عن ضربات موجهة لإسرائيل، وضربت الأردن أخيراً، وتوجد شكوك أنها كانت وراء الهجوم على أرامكو السعودية في سبتمبر/ أيلول من عام 2019. هي تهدّد دولاً بالحرب، وتقوم باستهدافاتٍ عسكريةٍ مميتة أو خطرة في مناطق عراقية عديدة من دون عِلم القنوات الرسمية ذات الصلة. ألا يستدعي هذا أن تصبح السلطة التنفيذية المسؤولة عن تسيير إدارة الدولة بين خيارين. إما أن تصير بلا سيادة كونها معتدية لأن أطرافاً فيها تزاول ذلك، مثل كتائب حزب الله وحركة النجباء وعصائب أهل الحق ومنظمة بدر وغيرها. الخيار الثاني أن تُسلب الجماعاتِ المسلحةَ صفةَ الدولة والتمويل وبالتالي ملاحقة انتهاكاتها. الثاني بالطبع صعب، لأن بعض تلك الجماعات طرف أساسي في الحكومة وتأليفها.

على هذا الأساس، التنديد بالقصف الأميركي لأنه اعتداء على السيادة حق للحكومة منقوص. المطلوب مبدئياً أن تباشر هي بفرض السيادة في مواجهة انخراط مليشيات تابعة لها في محور إقليمي تقودُه طهران. القناة الرسمية التي تحدد موقف بغداد من هذا المحور، وهي رئاسة الحكومة أو وزارة الخارجية، لم تبرْم أيَّ اتفاق مع العاصمة الإيرانية يجعل نظيرتها العراقية جزءاً من محورها. إذاً، ما دمنا نتحدث عن السيادة وهو مفهوم فلسفي/ قانوني، الانخراطُ العسكري والأمني لطرف رسمي (مليشيات في الحشد وأحزاب) في هذا المحور هو انتهاك للقانون المحلي والدولي، وبالتالي انتهاك للسيادة. من هنا تبدأ الحكاية.

الحكاية أن هناك مفهوماً بائساً جرى ترويجه قرناً يقول إن السيادةَ مجردُ حدود جغرافية، خطٍ أحمر أمام تجاوزِ دولة أخرى. لقد مُرّر هذا المفهوم في تربيتنا القومية أو الوطنية وإلى تصوراتِنا السياسية بوصفه المعنى الوحيد للمفردة. في حين أن كل جدليات الفلسفةِ والفلسفةِ السياسية وتعاليمِ القوانين الدولية الراهنة تنظر إلى هذا المعنى بوصفه جزءاً من معنى أوسع.

دمار سببته غارة أميركية على مقر الحشد الشعبي في مدينة القائم بالأنبار (الأناضول)

> **التنديد بالقصف الأميركي لأنه اعتداء على السيادة حق للحكومة العراقية منقوص. المطلوب أن تباشر بفرض السيادة في مواجهة انخراط مليشيات في محور إقليمي**

مفردة السيادة بدأت في إطار سجال فلسفي بين توماس هوبز، المؤمن بسلطة الدولة المخوَّلة بفعل تعاقد أشخاص، وجون لوك المؤسس لفكرة سيادة الأمة. ومن هذه السجالات، نبعت جدلياتٌ وسردياتٌ متتالية عن سيادة القانون لغاية تبلور مفهوم الدولة الحديث. المفردة تستغل تعسفاً من جانب السلطات الديكتاتورية أو الفاشلة أو الفاسدة لتقتصر على تلك الحدود الجغرافية التي يحقّ لأي حاكم أن يفعل فيها ما يريد من دون رادع.

من هنا، إن بلداً، تخشى المؤسسات الرسمية المدنية والعسكرية والأمنية فيه من سلطة موازية، منقوص السيادة أو فاقدها. وإذا أراد الحصول على استحقاق هذه المفردة، لا فرصة لديه إلا أن يبدأ بالتخلص من هذه السلطة الموازية. إن لم يحصل ذلك فلن يكون العراق قادراً على استعادة ما فقده منذ غزو الكويت عام 1990. خصوصاً أن اللعب ضد واشنطن لن يؤدّي سوى إلى مزيد من الخسائر ودوام الفشل. الولايات المتحدة، منذ انتهاء الحرب الباردة، لم تقصف بلداً من دون أن يفتك هو بسيادته أو يعتدي على دولةٍ أخرى. هي تستثمر هذا المدخل لكي توسع نفوذها. عراق صدام وليبيا القذافي وأفغانستان طالبان (الحكومة الأولى) وسورية الأسد أمثلة على هذا. وقد اختار العراق خلال عشرين عاما مضت أن يواصل قدرَ نظامه السابق، رغم أن جلّ النظام الحالي معاد لذلك السلف. هذا أحد عوامل استمرار الحرب فيه. لن تتوقف إطلاقا ما دامت بغداد لا تحترم سيادتها على نفسها، سيادة الدولة والأمة، والدول الأخرى. القصف الأميركي على العراق هذه المرّة مستدام حتى تتوقف استهدافات مصالحها. هي معركة بين عصابات مرتبطة بطهران داخل بلد يريد أكثر شعبه الاستقرار، ودولة عظمى خصومها في الشرق الأوسط على مدى 70 سنة أنظمةٌ وجماعاتٌ استشرى فيها الفشل أو القمع أو البؤس، بدءاً بقاهرة جمال عبد الناصر وانتهاء بطهران خامنئي. ربما سيأتي يوم يظهر فيه من يوقف واشنطن وتحكمَها الفائض، ويقدّم نموذجاً أفضل، لكنه بالتأكيد ليس المليشياتِ العراقيةَ ومحورَها الإيراني. الـ«ربما» هذه غير مرجّحة في المدى المنظور، لكنها نظرياً ممكنة.

(كاتب عراقي في لندن)

جون كيربي يجيب جورج بوش

معن البياري

وحدها إجابة جون كيربي عن سؤال صحافي عربي، قبل أيام، عن موقف الإدارة الأميركية، من واقعة اقتحام عشرة من المستعربين الإسرائيليين مسلحين مستشفى ابن سينا في جنين، وقتلهم ثلاثة فلسطينيين على أسرة علاجهم واستشفائهم، بكواتم صوت، وحدها تصلح إجابة عن السؤال العتيد والباقي: لماذا يكرهوننا؟ وصاحبه الرئيس الأميركي السابق، جورج بوش، طرحه في خطابه في الكونغرس، في سبتمبر/ أيلول 2001. قال كيربي بالضبط إن الولايات المتحدة مع حماية المستشفيات، ولكن إسرائيل قالت إن من قتلتهم إرهابيون. ولمّا كان أرشيف الإدارات الأميركية المتعاقبة منذ عقود ثقيلا بمواقف وسياسات معادية لحقوق الشعب الفلسطيني ونصيرة لكل اعتداءات إسرائيلية عليه، فيصير من الميسور أن تستدل برزم من شناعات أميركية في هذا الخصوص شاهدا على هذه البديهية، إلا أن هذا كله لا يخصم من القيمة الباهظة لما أفضى به كيربي بشأن الجريمة الإسرائيلية المشهودة، لأن عبارته، على قصرها، تضج بكذب ونفاق وفيرين يلتقيان مع اصطفاف دولة عظمى مع سلوك عصابة من الزعران القتلة. وإذ يتولّى هذا الرجل أظنه مستحدثا، منسّق مجلس الأمن القومي الأميركي للاتصالات الاستراتيجية، فإنك لا بد ستفترض محقا أن الإدارة الأميركية الراهنة (كما سابقاتها بالمناسبة)، وعلى أعلى مستويات صناعة القرار الأمني والعسكري والاستراتيجي، إن كانت مع «حماية المستشفيات»، كما صار العالم يعرف، فإنها في الوقت نفسه لا تؤاخذ أو تنتقد استباحة أي قوة إسرائيلية أي مستشفى فلسطيني. وليس منسيا أن كيربي هو نفسه الذي أعلن أن لدى حركتي حماس والجهاد الإسلامي مركز قيادة ومراقبة انطلاقا من مستشفى الشفاء في غزة، وذلك في غضون الاعتداء العسكري الصريح الذي باشرتْه إسرائيل في هذا المستشفى (بني قبل إعلان دولة إسرائيل). وعندما انتقدت منظمة الصحة العالمية هذا الكلام، واعتبرته ترخيصا أميركيا لجريمة جيش الاحتلال التي استهدفت المرضى والأطباء وطواقم المستشفى، ردّ كيربي بالنفي.

ربما قصد جورج بوش في سؤاله ذاك كارهي أميركا ممن خططوا هجمات 11 سبتمبر ودبروها وهيأوا لها، ثم من ناصروها، فيما كان مطالبا بأن يسأل نفسه عن الأسباب التي تجعل السياسة الأميركية تجاه العرب والمسلمين بغيضة ومقيتة، بل وعدوانية في غير شأن وواقعة، فلا يجيب عن سؤاله بالذي أجاب به، إن أولئك يكرهون الحريات الأميركية، حرية التعبير والحرية في التصويت وفي الاختلاف، والحرية الدينية. كان طريفا من الرئيس وصفه الأميركيين بأنهم خيرون، ولم يكن لأحد أن يقول غير هذا، لولا أنه افترض أن شخصه ومن معه في إدارته خيرون أيضا. ولا يحسن اعتبار كل ذلك الكلام الذي نطق به جورج بوش في خطاب أمام المشرعين الأميركيين تهريجا، كما الذي يقوله جون كيربي في إطلالاته شبه اليومية، ولا يكف فيها عن ابتكار عبارات الإسناد لإسرائيل في غزّة، عندما يبكي على الهواء مباشرة تفجعا على القتلى الإسرائيليين في 7 أكتوبر، وعندما ينزّه حكومة الاحتلال وجيشها من أي ارتكابات في غضون عدوانها المعلوم، وعندما يفترض في نفسه الأهليّة لتبرئتها مما هي متهمة به في مثولها أمام محكمة العدل الدولية، وعندما لا يرى صلة بين ضربات الحوثيين في البحر الأحمر والعدوان على الشعب الفلسطيني في قطاع غزّة.

انعطف جون كيربي من اختصاصه في البكالوريوس في الفنون إلى دراسة العلاقات الدولية ثم الخدمة في الجيش أزيد من 25 عاما، قبل أن يصبح متحدثا باسم الخارجية ثم البنتاغون ثم يصير في منصبه الذي يزاول فيه فنونا في تغذية العرب بأسباب مضاعفة في كراهية السياسة الأميركية، ذلك أن ما يصدر عنه من أقوال، وهي أشد تعاسة مما نسمعه من الوزير بلينكن والرئيس بايدن، تفيد في تفسير ما يطرد ارتفاعا من مواقف كارهة للولايات المتحدة في المجتمعات العربية، فقد أبان 94% من المستطلعين العرب في قياس المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات أن موقف واشنطن بشأن الحرب في غزة سلبي، فهو لا يتورع عن تظهير أقبح ما في انحيازات الولايات المتحدة للعدوان ... ما يجعله سببا ساطعا للكراهية التي استفظعها جورج بوش قبل أزيد من عقدين.

جدوى دراسات الجدوى

سامح راشد

ثمّة مثل شعبي شائع لدى المصريين البسطاء، وهو «بعد العيد لا يُفتل الكعك». وفكرته أن الأمر الذي لا يتم في أوانه لا فائدة منه. وينطبق هذا المثل، العبقري رغم بساطته، على مصر وأحوالها الراهنة. فقد تكرّر، حتى صار معتاداً، أن تتخذ السلطة في مصر قراراً وتنفّذه أو ترسم سياسة وتطبقها أو تدشن مشروعاً وتفتتحه. ثم تتراجع، فتعيد النظر في نتائج السياسة المتبعة، أو تلغي القرار أو تدرس جدوى المشروع. ورغم حدوث هذه الدورة السلبية مرّات متعدّدة في الأعوام الماضية، هناك إصرار غير مفهوم على اتباع النهج ذاته في إدارة الدولة... وهو النهج الذي أعلنه صراحة رأس السلطة قبل نحو ستة أعوام، حيث قال على الهواء في ديسمبر/ كانون الأول 2018: «لو أننا اتّبعنا دراسات الجدوى لما حققنا 25% مما أُنجز». كانت هذه هي المرّة الأولى، ولكنها ليست الأخيرة، التي تتعرض فيها دراسات الجدوى لإهانة واستهتار رسميين، حيث تكرّر المعنى ذاته لاحقاً أكثر من مرّة. لكن بعد أن انهمكت الدولة في مشروعاتٍ غير مدروسة استنزفت مئات المليارات من الدولارات سنوياً. وربما لولا الضغوط الناجمة عن الانكماش الاقتصادي العالمي، لما أقرّت السلطة المصرية بفشل مشروعاتها، ولكانت اندفعت إلى مشروعات أخرى تكبّد المصريين ملياراتٍ فوق مليارات، من دون أي دراسات جدوى. لكن تحت وطأة أزمتي كورونا ثم حرب أوكرانيا، أكّد مسؤول حكومي مصري في يونيو/ حزيران 2022، أن ثمة تفكيراً في تأجيل المرحلة الثانية من مبادرة «حياة كريمة»، لدراسة الأثر الاقتصادي للمشروع. وبعد أقل من شهرين، بدأت وزارة النقل دراسة وقف تشغيل «القطار الكهربائي الخفيف» الذي يربط القاهرة بالعاصمة الإدارية، وذلك لثبوت عدم جدواه اقتصادياً، بعد أن بلغت تكلفة المرحلة الأولى منه 2,3 مليار دولار. وقبل أن ينتهي عام 2022، قرّرت وزارة الري المصري إعادة تقييم المشروع القومي لـ«تبطين الترع» والمجاري المائية، الذي كان الإعلام المصري قد اعتبره «أكبر مشروع من نوعه على مستوى العالم في العصر الحديث». وقبل شهرين، اعترف السيسي علناً بفشل مشروع تأسيس مدينة جديدة للأثاث في محافظة دمياط شمال شرق القاهرة، وأقرّ بأن السبب إغفال أبعاد اجتماعية لم يأخذها مخطّط المشروع في الحسبان.

كذلك شهد العام الماضي 2023 توقّفاً شبه كامل للعمل في مشروعات عدّة، تشمل المونوريل والقطار السريع ومشروع المليون فدّان. بينما لم يسمع أحد عن أي جديد في مشروع «الرمال السوداء» والمزارع السمكية و«مائة مليون صحة» وغيرها من مشروعات لو صحّ ما روَّجه الإعلام عنها، لصارت مصر من أغنى الدول بين عشيةٍ وضحاها. ولو تم توفير تكاليفها، لتكفّلت بسداد جزء كبير من ديون مصر، فضلاً عن تخفيف المعاناة في المناطق السكنية التي تتعطّل الحياة فيها، وبعضها لا تزال مكبّلة بالمخازن والمعدّات والحفائر الخاصة بتلك المشروعات. هذا كله بخلاف التوظيف السياسي لتلك المشروعات الوهمية، لخداع البسطاء بأن ثمّة تنمية تجري ومستقبلاً مشرقاً قادماً، رغم أن معيشتهم اليومية مريرة ومؤلمة. المؤسف في ذلك كله، ليس سوء التقدير أو الغباء في الإدارة أو ارتكاب الأخطاء، بل الإصرار عليها وتكرارها بالطريقة ذاتها مرّات ومرّات. كما لو كان في الاستعانة بالمتخصّصين والخبراء، تشكيك في قدرات من يملون القرار أو إهانة لعقولهم.

هذا هو سمت العقليات المنغلقة والشخصيات العُصابية كالتي تحكم مصر حالياً. رغم أن أقلّ الناس ذكاءً وأكثرهم غروراً، كان سيدرك بسهولة المعنى الواضح في تكرار تعثر المشروعات واستمرار إخفاق السياسات. وهو أن الأزمة الحقيقية فيمن يعتبرون الاعتراف بالحقّ خطيئة لا فضيلة، إذ لا جدوى مع من يجهل قيمة دراسات الجدوى.

مسارات الحرب في 2024

معين الطاهر

بات واضحًا أن الحرب في غزّة وعليها لن تتوقف خلال عام 2024، بل قد تمتد ذيولها إلى ما بعد هذا العام. وهي حربٌ سيكون لها ما بعدها فلسطينيًا وعربيًا، كما هو إسرائيلياً ودولياً، يهتم هذا المقال بتتبع مسارات الحرب خلال عام 2024، في محاولة أولى لمعرفة محاورها واتجاهاتها ونتائجها المتوقعة، وهي محاولة محكومة بمسارات الحرب ذاتها التي تتأثر نتائجها بقدرات المقاومة وصمودها، وخططها العملياتية، إضافة إلى مدى قدرة الجيش الإسرائيلي على تحقيق أهدافه المعلنة، أو خفض سقفها باتجاه أهداف أخرى، نتيجة لخضوع القرار العسكري العملياتي للتوجيهات السياسية، وتأثير نتائج الحرب في المجتمع الإسرائيلي وحكومته، ولعل أحد العوامل المهمة التي ستؤثر أيضًا في مسارات الحرب احتمالات توسعها، وحراك الشعوب العربية، وتضامنها مع المقاومة في غزّة، وتغيّر الرأي العام العالمي الساعي إلى وقف هذه الحرب، ومدى استجابة الولايات المتحدة الأميركية لذلك، أو استمرارها في تقديم دعمها غير المحدود للكيان الصهيوني، إضافة إلى موقف النظام الرسمي العربي.

كانت عملية طوفان الأقصى معجزة عسكرية بالمعنى العلمي للكلمة، إذ دمّر بضع مئات من مقاومي كتائب عز الدين القسام فرقة عسكرية إسرائيلية كاملة عُرفت باسم «فرقة غزّة»، وتمكّنوا من تجاوز الجدار الإلكتروني الذي يفصل قطاع غزة عن غلافه، بعد أن مارسوا عملية تضليل واسعة جعلت أجهزة الأمن الإسرائيلية عاجزة عن اكتشاف ما يُخططون له منذ أشهر وسنوات، وأدّت إلى نجاح العملية العسكرية وتحقيق مفاجأة كاملة، ما سيؤدّي لاحقاً، بعد انتهاء الحرب أو خلالها، إلى إطاحة رؤوس كبيرة بتهمة التقصير على المستويين العسكري والسياسي.

الإنجاز الأكبر والأعظم كان في المعارك التي وقعت بعد 7 أكتوبر، والتي تجلّت فيها استراتيجية المقاومة وخططها العملياتية، حيث اتضح حجم التجهيز والاستعداد المسبق الذي امتد سنوات، خاصة على مستوى إعداد المقاتلين وتدريبهم ليتمكنوا من القتال ضمن مجموعات صغيرة منفردة مكلّفة بمهام محددة، وهذا يتطلب تدريباً وإعداداً خاصاً، ونظاماً لمنظومة القيادة والسيطرة في القسام يختلف جذريًا عن ذاك المتبع في الجيوش النظامية، إذ اعتمدت توزيع المهام والواجبات مسبقًا، وهو ما نُفّذ بنجاح حتى اللحظة، وساهم في إدامة المقاومة وتماسكها، وتمكينها من مواصلة القتال على كل المحاور التي يتقدم فيها الجيش الإسرائيلي، إذ لم تتبع المقاومة أسلوب التصدي عبر محاور وخطوط تماس وجبهات ثابتة تستلزم حشد القوات في نقاط محددة تمنع تقدم العدو، على نحو يستنزف ذخائرها، ويعرّضها لضربات كبيرة، في ظل تفوّق قوة العدو، ويشتت قواتها في حال نجاحه في إحداث خرق في خطوط التماسّ. على خلاف ذلك، اتبعت المقاومة، نتيجة إدراكها طبيعة ميزان القوى العسكري بينها وبين الجيش الإسرائيلي، تكتيكات مختلفة تعتمد بقاء كل مجموعة في منطقتها، والاشتباك مع العدو حين ينشر قواته، وهذا ما يمنحها أفضلية معرفة الأرض، والقدرة على اصطياد آلياته وجنوده، ويمكنها من حفظ ذخائرها ضمن مبدأ الاقتصاد في القوى؛ إذ تخرج المجموعة المقاتلة من مخبئها، فتضرب ضربتها، ثم تنسحب من الموقع بسرعة، قبل أن يعاود الجيش الإسرائيلي قصفه. ونتيجة لهذا الأسلوب، تمكّنت المقاومة من مواصلة القتال في أرجاء القطاع، بما فيها الأماكن التي أعلن العدو سيطرته عليها.

المسألة الثانية التي ساهمت في تحقيق الإنجاز الكبير هي شبكة الأنفاق الواسعة التي ما زالت صندوقًا أسود، إذ عجز العدو وأجهزته الأمنية عن اكتشاف حجمها، وطرق اتصالها، وبنيتها اللوجستية التي اكتشف حديثًا أنها تضم غرف عمليات عسكرية، ومستشفيات ميدانية مخصصة لعلاج جرحى المقاومة. كما عجز عن تمييز فتحات الأنفاق الحقيقية وتلك الوهمية التي استُخدمت مصائد تكرر انفجارها في وجوه جنود سلاح الهندسة الصهيوني. وكذلك لم يتوصل الاحتلال إلى طريقة لتدمير هذه الأنفاق، ففشل في قصفها، أو إغراقها بالمياه، كما عجزت طائرات الاستطلاع الأميركية والبريطانية عن معرفة مواقعها، ليُضاف فشلها إلى فشل أجهزة الأمن الإسرائيلية في رصدها وتحديد مواقعها سابقًا، على الرغم من أن عملية إنشائها استغرقت سنوات عدة. وقد أدت هذه الأنفاق دورًا مركزيًا في إدارة المقاومة للحرب التي نقلتها من فوق الأرض إلى تحتها، فحيّدت بذلك قدرة العدو على استخدام فائض القوة النارية التي دمر بها المباني والأبراج السكنية، لكن تأثيرها بقي محدودًا للغاية على الأنفاق، فاضطر إلى توزيع قوات المشاة والمهندسين والوحدات الخاصة على كل شبر من غزة، بحثًا عن فوهة نفق، أو منصة صواريخ مخبأة تحت الأرض، ثم دفع بوحدات المشاة الراجلة للاشتباك مع ما تعثر عليه منها، ففقدت بذلك مدرعات العدو ودباباته ميزتها وقدرتها على الاندفاع خارج محاور التقدم، لتصبح مهمة الدبابة حماية فصيل مشاة يتقدم، ثم لا تلبث هي وأفراد الفصيل أن يقعوا في مرمى نيران المقاومة.

بعد نحو أربعة أشهر منذ اندلاع الحرب، ما زالت المقاومة صامدة، ولم يتمكّن العدو من ادّعاء بسط سيطرته سيطرة كاملة على أي منطقة في غزة، بما فيها شمالها، وإن كان قد تمكّن من فصل أجزاء القطاع بعضها عن بعض، والتقدم باتجاه المحاور الرئيسة، وتدمير ما يزيد على 70% من المباني السكنية، والبنية التحتية والخدماتية والصحية، وتحويل قطاع غزّة إلى منطقة غير صالحة للحياة، إضافة إلى قتل وجرح أكثر من مائة ألف مواطن غزي.

لا يزال سقف الأهداف الإسرائيلية في هذه الحرب مرتفعاً، إذ تحدد بالقضاء على حركة حماس، واستعادة الأسرى الصهاينة، والسيطرة على قطاع غزّة، لكن الحكومة الإسرائيلية لم تتمكن من اتخاذ قرار حول اليوم الثاني بعد الحرب، وأعضاءها مختلفون بين خيارات احتلال غزة والبقاء فيها، وإعادة استيطان أجزاء منها، وتهجير أهلها قسرياً، أو تحويلها إلى منطقة لا يمكن العيش فيها، وإقامة منطقة عازلة حولها، أو تأسيس إدارات محلية من المتعاونين مع الاحتلال، وقلة منهم قالوا بتسليمها إلى السلطة الفلسطينية، بعد (إصلاحها وإعادة تأهيلها)، مع إجماعهم على إبقاء حرية الحركة والمطاردة الساخنة للجيش الاسرائيلي مثل ما يحدُث حاليًا في الضفة الغربية.

هذا الارتباك في أداء الجيش الإسرائيلي الذي اعتبر معركته في غزة معركة وجود واستقلال ثانٍ، ورفع سقف توقعاته منها، يفسر سببَ إطالة مدة الحرب على مستويات مختلفة، وقد نشهد خلال عام 2024، وربما مدة أطول، تصعيدًا كبيرًا في بعض الأوقات، وعمليات محدودة في أوقات أخرى، إذ إن هذه الأهداف في أغلبها غير قابلة للتحقيق، ومن المرجح أن تتراجع إسرائيل عن الجزء الأكبر منها. أما المقاومة فسوف تستمر وفق تكتيكاتها الحالية القائمة على قنص أفراد العدو وآلياته، من خلال مجموعات صغيرة العدد، مع إمكانية المبادرة بنصب كمائن على مستوى مجموعات أكبر، وتأكيد قدرتها على إعادة الانتشار والتمركز من جديد في المناطق التي ينسحب منها الجيش الإسرائيلي. وستكون مهمة المقاومة الأساسية إدامة الاشتباك مع العدو، لكن مع استمرار الحرب، ستعاني المقاومة تدريجيًا تقلصًا في قدراتها الصاروخية. أما عامل الضغط الأساسي الذي ستواجهه المقاومة فيتمثل بالوضع الإنساني المتدهور، ونقص المساعدات والخدمات، والنزوح المستمر من منطقة إلى أخرى، وهو ضغطٌ يمسُّ بشكل كبير حاضنتها الشعبية، ولعل مواجهة هذا الجانب في الحرب لا يتعلق بالمقاومة وحدها - وإن كان من صلب واجباتها - وإنما يمسّ أيضًا الجماهير العربية، والنظام الرسمي العربي، والمجتمع الدولي، والمنظمات الدولية التي تقع عليها جميعًا مهمة مساعدة أهالي غزّة، وإنقاذهم، وتوفير مقوّمات الحياة الأساسية لهم، ووقف الإبادة الجماعية التي يتعرّضون لها. يتوقف معيار النصر والهزيمة في هذه الحرب على الطريقة التي ينظر بها إليها كل طرف، والأهداف التي يسعى لتحقيقها. وبلا شك، فإن نهاية الحرب ليست كبدايتها؛ لا للطرف الصهيوني ولا للمقاومة، وسنشهد خفضا على سقف التوقعات، تبعًا لمسارات الحرب. ادّعاء الجيش الإسرائيلي انتصاره في هذه الحرب يتطلب نجاحه في تصفية المقاومة، وفرض سيطرته الكاملة على غزة، أما المقاومة فمعيار نصرها هو بقاؤها وصمودها، على الرغم من الضربات والخسائر التي قد تلحق بها. نتيجة هذه الحرب تحددها، أولًا وقبل كل شيء، مسارات الحرب ذاتها، بما في ذلك احتمالات توسعها، وتحديدًا على جبهة الجنوب اللبناني. لكن ينبغي الحذر مما تتمخض عنه من نتائج سياسية؛ ترتيبات اليوم التالي للحرب، وشكل الإدارة التي ستدير غزة، وإمكانية إحضار قوات دولية وعربية تتولى مهمة نزع سلاح المقاومة، ذلك كله قد يضع المقاومة - على الرغم من صمودها واستمراريتها في الميدان - في مواجهة أوضاع جديدة تدفعها إلى تغيير تكتيكاتها.

أما الفلسطينيون كلهم، فيحتاجون في هذا العام والأعوام التي تليه إلى النظر إلى المقاومة بوصفها عملية شاملة، يشارك فيها الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية والداخل والشتات بطاقاته كلها، وتتعدّد أشكالها لتشمل العمل المسلح المنظم والفردي، والمقاومة الشعبية والجماهيرية، والنضال ضد نظام الأبارتهايد والتمييز العنصري، والتنمية والإعمار. وهذا يتطلب وحدة الصفوف، وتحديد دحر الاحتلال هدفاً رئيساً للكل الفلسطيني المتمسك بروايته التاريخية، والنظر إلى معركة طوفان الأقصى بوصفها خطوة على هذا الطريق، حققت انتصاراً في هذه الجولة من الصراع الطويل، ومهّدت لخطوات أخرى لاحقة.

(كاتب فلسطيني)

> يحتاج الفلسطينيون في هذا العام والأعوام التي تليه إلى النظر إلى المقاومة بوصفها عملية شاملة، يشارك فيها الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية والداخل والشتات بطاقاته
>
> يتوقف معيار النصر والهزيمة في الحرب في غزة على الطريقة التي ينظر بها إليها كل طرف، والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها

«رواية حماس»... ماذا بعد؟

أمجد أحمد جبريل

على الرغم من تأخّر بيان حركة حماس «هذه روايتنا... لماذا طوفان الأقصى؟» (2024/1/21)، فقد جاء لكي يقدّم روايتها لعملية 7 أكتوبر وأسبابها وأهدافها وسياقاتها، في إطار التصدي للدعاية الصهيونية/الغربية، الرامية لتشويه صورة المقاومة الفلسطينية دائما، وسلب «الإنسان الفلسطيني»، طفلا كان أم امرأة أم شابا أم شيخا، أبسط حقوقه في العيش بحرية وكرامة على تراب وطنه.

وفي إطار تقويم هذا البيان ونقده، وتحليل مكامن قوته وأوجه قصوره، ثمة خمس ملاحظات متداخلة؛ أولاها تتعلق بإيجابيات البيان ونقاط قوته؛ إذ يبدأ باستحضار «البعد التاريخي» في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، «الذي لم يبدأ في السابع من أكتوبر 2023»، بل يرجع إلى زمن الاستعمار البريطاني، الذي أوجد البيئة المناسبة لإنشاء مؤسسات الكيان الصهيوني، ودعمها بفتح باب الهجرات اليهودية إلى فلسطين، بالتوازي مع الإصرار البريطاني على حرمان الشعب الفلسطيني من حق تقرير المصير. وقد أحسن البيان بتذكيره بمعاناة الشعب الفلسطيني المستمرة منذ عقود طويلة، ناهيك عن فرض حصار خانق على قطاع غزة منذ 17 عاما، وتحويله «أكبر سجن مفتوح في العالم» وتعرضه لخمس حروب مدمِّرة.

وإلى ذلك، يشير البيان إلى إحصائيات موثّقة تكشف قتل إسرائيل في الفترة (2000- سبتمبر/أيلول 2023) أكثر من 11 ألف فلسطيني أغلبيتهم من المدنيين، ناهيك عن جرح أكثر من 156 ألفا آخرين، من دون أن تلتفت إليهم واشنطن وحلفاؤها، مثلما تباكوا على القتلى الإسرائيليين في السابع من أكتوبر.

ومن الإيجابيات أيضًا وصف حركة حماس نفسها بأنها «لا تعادي اليهود، وأنها حركة إسلامية وسطية وحركة تحرر وطني»، وهو تأكيد لما جاء في «وثيقة المبادئ والسياسات العامة»، التي صدرت (2017/5/1)، خصوصا المادة 16: «تؤكد حماس أن الصراع مع المشروع الصهيوني ليس صراعا مع اليهود بسبب ديانتهم، وحماس لا تخوض صراعا ضد اليهود، وإنما تخوض صراعا ضد الصهاينة المحتلين المعتدين».

وإذ يعترف البيان باحتمال حدوث خلل أثناء تنفيذ عملية «طوفان الأقصى»، (بسبب انهيار المنظومة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية، وحدوث بعض الفوضى نتيجة الاختراقات الواسعة للسياج الفاصل)، فإنه يؤكد أن العملية استهدفت «فرقة غزّة العسكرية» والمواقع العسكرية في مستوطنات غلاف غزة، بغية أسر جنود ومقاتلين إسرائيليين لإجبار دولة الاحتلال على إطلاق سراح آلاف الأسرى الفلسطينيين.

تتعلق الملاحظة الثانية بتأكيد البيان أن حركة حماس تتجنّب استهداف المدنيين (خصوصا النساء والأطفال وكبار السن)، وهو التزام رافق الحركة منذ انطلاقتها عام 1987، بالإضافة إلى عرض حماس، بعد تنفيذ المستوطن باروخ غولد شتاين، مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل (1994/2/25)، مبادرة بتجنيب المدنيين ويلات الصراع، من قبل كل الأطراف.

لقد كذّب بيان حماس بوضوح، الادعاءات الإسرائيلية، التي روّجها كثيرون، (ومنهم الرئيس الأميركي، جو بايدن) حول قتل الأطفال الرضع واغتصاب نساء إسرائيليات.. إلخ، والأهم أن حماس برهنت بالدليل الملموس على تعاملها الإيجابي في ملف الأسرى المدنيين، الذين أطلق سراحهم إبان «الهدنة الإنسانية» (24-2023/11/30).

تتعلق الملاحظة الثالثة بالمستهدَفين من البيان؛ إذ يخاطب ثلاث فئات: الشعب الفلسطيني، الشعوب العربية والإسلامية، و«أحرار العالم مناصري الحق ورافضي الظلم، والمدافعين عن الحرية والعدالة وكرامة الإنسان، في كل مكان».

ولعل هذا ما يفسّر تركيز البيان على أربع رسائل إضافية؛ أولاها ازدراء دولة الاحتلال التقارير الموثّقة لمؤسسات الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان العالمية للانتهاكات الإسرائيلية، وقيام سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة، جلعاد أردان (2021/10/29)، بتمزيق تقرير مجلس حقوق الإنسان. وثانيتها التعامل الأميركي والغربي مع إسرائيل، منذ إنشائها، «دولة فوق القانون»، ودعم استمرار احتلالها فلسطين وقمع شعبها ومصادرة حقوقه و«تهجيره» من أرضه، ناهيك عن «الفيتو» الأميركي الغربي أمام أية محاولة لإدانة إسرائيل، ما يجعل هذه الدول «شريكا كاملا» للاحتلال في جرائمه المستمرة. وثالثها رفض إسرائيل القاطع قيام دولة فلسطينية، كما جاء في خطاب رئيس الوزاء بنيامين نتنياهو، أمام الأمم المتحدة (2023/9/22). ورابعها إصرار إسرائيل على تدمير إمكانية قيام دولة فلسطينية وتوظيفها اتفاق أوسلو 1993 لتكثيف الاستيطان والتهويد في الضفة الغربية، خصوصًا في القدس الشرقية.

تتعلق الملاحظة الرابعة بالانعكاسات المحتملة لبيان حماس، على مسار السياسات الدولية والإقليمية تجاه حرب غزّة؛ فالأرجح أن تأثير البيان لن يظهر سريعا، (تماما كما حدث بعد وثيقة حماس للسياسات العامة عام 2017)، بل المفارقة أن مسار العقوبات الأميركية والبريطانية (والغربية عموما) قد يتصاعد، خصوصا تجاه وكالة الأمم المتحدة لتشغيل وغوث اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)، لأن الهدف الإسرائيلي الواضح من «حرب الإبادة» هو تهجير أهالي قطاع غزة، أو إعادة «استيطانه» كما تطالب قوى الصهيونية الدينية المتطرفة، ما يؤكد أن السلوك الإسرائيلي ليس متعلقا بالرد على هجوم 2023/10/7، وإنما بتنفيذ استراتيجيات وخطط معدة سلفا، ربما في إطار صفقة القرن، في الذكرى الرابعة لطرحها من الرئيس الأميركي السابق، دونالد ترامب.

وهذا يؤكد أن البعد الأميركي/ الدولي يبقى حاسما في تحجيم المكاسب السياسية لحركة حماس من «طوفان الأقصى»، في ظل بروز ما يشبه «التحالف الدولي/ الغربي ضدّ حرية فلسطين وشعبها»، بقيادة الرئيس بايدن.

وعلى الرغم من أن حكم محكمة العدل الدولية (2024/1/26) يؤكد إخفاق «السردية الإسرائيلية» ومحدودية نتائج سياسات «شيطنة الفلسطينيين»، خصوصا حركة حماس، وفشل محاولات إسرائيل استدعاء سردية «مكافحة الإرهاب» من جديد، إلى صدارة الأجندات الدولية والإقليمية، فإن ثمة حاجة ملحة إلى بلورة استراتيجية تحرر فلسطينية ضد نظام الفصل العنصري «الأبارتهايد» الإسرائيلي، استرشادا بنجاح نضال نيلسون مانديلا وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي ضد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

تتعلق الملاحظة الأخيرة بالتحديات الراهنة والمستقبلية أمام حركة حماس وفصائل المقاومة الفلسطينية عموما؛ سيما كيفية نقل الصراع إلى مساحات الضفة الغربية والقدس، كونها الأكثر تأهيلًا لخوض «معركة النفس الطويل» مع قوات الاحتلال، إضافة إلى أهمية عدم استعجال تداعيات «طوفان الأقصى» وضرورة إصرار المفاوض الفلسطيني على إخراج المدنيين والمجتمع من بطش قوات الاحتلال وانتقامها الدموي.

باختصار، جاءت صياغة بيان حماس جيدة، وظهر فيها قدر من «الحجج التركيبية»، التي تستبطن معنى «لعم»، (مقارعة حجج الخطاب الدعائي الإسرائيلي بحجج فلسطينية مضادة، معمّدة بفعل «التفوق الأخلاقي الإنساني» الفلسطيني، كما اختصرها مراسل قناة الجزيرة في غزة وائل الدحدوح إثر استشهاد نجله حمزة، «هذا هو قدرنا ويجب أن نقبل به مهما كان، نحن ماضون وهذا هو التحدي الكبير، نحن مشبعون بالإنسانية وعدونا مشبع بالقتل»).

وعلى الرغم من زيف الدعاية الصهيونية، وتضليلها العالم على مدار عقود طويلة، عبر «احتكار دور الضحية الدائمة»، فقد أحسنت حركة حماس صنعا برفضها ما تعرض له اليهود من جرائم النازية، على الرغم من كون المشكلة اليهودية في جوهرها «مشكلة أوروبية».

يبقى القول إن التحدي المستقبلي الأكبر أمام الشعب الفلسطيني، يتعلق بضرورة صياغة مشروع تحرري يعيد موضعة قضية فلسطين عربيا وإقليميا وعالميا، على نحو يتناسب مع التضحيات الفلسطينية المشهودة؛ فالمؤكد في هذا السياق أن الخطاب الإعلامي والسياسي الفلسطيني لا يزال يحتاج إلى مزيد من التطوير، لمواجهة تصاعد مخاطر سياسات نتنياهو في تصدير أزماته الداخلية عبر افتعال مشكلات أكبر مع إيران وحلفائها في إقليم الشرق الأوسط.

(كاتب فلسطيني في إسطنبول)

> التحدي المستقبلي الأكبر يتعلق بضرورة صياغة مشروع تحرري يعيد موضعة قضية فلسطين عربياً وإقليمياً وعالمياً
>
> أهمية عدم استعجال تداعيات «طوفان الأقصى» وضرورة إصرار المفاوض الفلسطيني على إخراج المدنيين والمجتمع من بطش قوات الاحتلال

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads